الباب الثانى

المنتصر ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾

[سورة التوبة: الآية ٣٢].

الفصل الأول

الخـــروج

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [سورة الأنفال - الآية ٣٠]

(١)

السنة: الأولى من الهجرة «الثالثة عشرة من النبوة».

الشهر: غرة ربيع الأول.

اليوم: الاثنين.

الوقت: الفجر.

كانت مكة تغط فى نوم عميق، جثم على صدور أهلها، فلقد هد أثرياءها إفراطُهم فى اللهو، وهد فقراءها اشتدادهم فى الكدح؛ وفى نومهم لا أحد من هؤلاء أو هؤلاء يدرى من أمر نفسه شيئا: أهى موتة صغرى يصحو بعدها ليمارس حياته من جديد، أو هى موتة كبرى لا فواق منها ولا عودة إلى الدنيا!.

ظل الحبيب محمد ﷺ يجول ببصره فيما حوله ونور الفجر يطل على استحياء فتبين الدور والخيام، وقد تلاصقت متحلقة حول الكعبة، فبدت كأنها تتقرب إلى بيت الله الحرام وتحتمى به؛ ثم علا البصر إلى حيث كانت الجبال ترتفع - بأمر ربها - فى صرامة تناطح السحاب، وتحيط بالكعبة والدور، فتضرب حولهما سورا لا يسهل اجتيازه!!.

ولعل الحبيب ﷺ قد أطال النظر والتأمل فى جبل بذاته، حيث غار حراء مهبط الوحى، وتذكر مجىء جبريل عليه السلام فى ذاك اليوم المشهود من أيام شهر رمضان، بأول أمر من ربه:

- اقرأ.

ولعل البصر قد توقف به ﷺ طويلا متأملا فى شعب محدد حيث حصر هو وأهله ثلاث سنوات، منعوا فيها من مخالطة أهل مكة، وحظر عليهم المشركون أن يتعاملوا معهم فلا يبيعونهم ولا يبتاعون منهم؛ وعلى رغم مرارة الذكريات، غلبته مشاعر حب الوطن، وتغلبت مشاعر الفراق على مشاعر الألم والمرارة، وفاض الوجد بالحبيب محمد ﷺ فقال:

- ما أطيبك من بلد وأحبك إلىّ، ولولا أن قومى أخرجونى منك ما سكنت غيرك.

وتحرك رسول الله ﷺ يشق طريقه إلى دار الصديق أبى بكر فهناك كان ينتظرهما الدليل والراحلتان، وتلاحقت حركة قدميه فى خفة فوق الرمال، ومع كل خطوة كان يشعر الحبيب بمكة تبتعد وتتراجع، بينما هى لاصقة بالقلب لا تغادره، على رغم كل ما لاقاه من أهلها من سوء عشرة وجيرة، وظلم له ولأهله ولأصحابه، وعلى رغم ما قالته فيه قريش من اتهامات بالباطل، فلقد تجاوز بغيهم كافة الأعراف، وكل حدود المعقول، ثم ها هم أولاء قد اجتمعوا خارج باب داره، يلبون ما وسوس لهم به إبليس، يترقبون خروجه، وقد أجمعوا على قتله بضربة واحدة من سيوفهم، حتى يتفرق دمه بين القبائل!!.

وعلى رغم هذا جميعه قال ﷺ وهو صابر على أذاهم، أملا فى أن تدركهم رحمة الله يوما:

– اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون، فلعلك يا رب هاديهم، ومخرج يا رب من أصلابهم ذرية تؤمن بك.

ولما اشتد إيذاء قريش للمسلمين، جاءوا إليه قائلين:

– يا رسول الله ادع على المشركين.

فقال ﷺ:

– لم أبعث لعانا، وإنما بعثت رحمة.

.. وحتى لما تمادوا فى غيهم يعمهون، متحدين وساخرين من توعد رب العالين لهم بالعذاب، إذ قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الأنفال – الآية ٣٢].

لم يدع رسول الله ﷺ عليهم بالهلاك، أو بالعذاب، كما دعوا على أنفسهم، أو كما فعلت الكثرة ممن سبقوه من الرسل والأنبياء، وكيف له أن يقسو وقد وصفه ربه فى آخر سورة التوبة، بأنه بالمؤمنين رءوف رحيم، وهو يرجو من الله أن يكونوا جميعًا مع الأيام مؤمنين: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾.

ثم كيف يكون لهم العذاب وفيهم الحبيب محمد ﷺ، يتعبد ويقنت لربه طوال الليل والنهار: ألم يدركوا أنه برجل واحد صالح، يحفظ الله أمة بأسرها: فما بالكم وقد أتى الحبيب ﷺ وعد ربه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة الأنفال – الآية ٣٣].

توقف الحبيب ﷺ واستدار يلقى نظرة أخيرة على أحب بلاد الله إليه، وقبل أن يغادر مكانه، وقد اعتلى راحلته رفع يديه إلى السماء ضارعا متضرعا وقال:

– الحمد لله الذى خلقنى ولم أك شيئا، اللهم أعنى على هول الدنيا، وبوائق الدهر، ومصائب الليالى والأيام، اللهم احجبنى فى سفرى، واخلفنى فى أهلى، وبارك لى فيما رزقتنى؛ عليك فدلنى، وعلى صالح خلقى فقومنى، وإليك فحببنى، وإلى الناس فلا تكلنى؛ أنت رب المستضعفين وربى، أعوذ

بوجهك الكريم الذى أشرقت له السماوات والأرض، وكشفت به الظلمات، وصلح عليه أمر الأولين والآخرين: أن يحل بى غضبك، أو ينزل على سخطك، أعوذ بك من زوال نعمتك، وفجاءة نقمتك، ولا حول ولا قوة إلا بك.

وبعد أن انتهى رسول الله ﷺ، تحرك الركب مخلفا وراءه مكة بأسرع ما يستطيع، حتى لا يدركهم نور النهار، وقبل أن يعرف المتآمرون بخروجه من بينهم، وقد تغشاهم الله فهم لا يبصرون، فلم يروه وهو يغادر داره، وضرب على سمعهم فلم يسمعوه وهو يتلو عليهم سورة: يس؛ بينما أخذت تتردد فى أذنيه كلمات ورقة بن نوفل وهما يطوفان معا بالكعبة عند بدء الوحى:

– والذى نفس ورقة بيده، إنك لنبى هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى: وليكذبنك، وليؤذينك، وليقاتلنك، وليخرجنك...

٢

وصل الحبيب محمد ﷺ وأبو بكر الصديق أمام جبل ثور، وبدأ يرتقيان الأحجار، بحثا عن مكان يختبئان فيه، بعيدا عن عيون المشركين، وبعد جهد جهيد من الارتقاء، إذا ببصر الحبيب محمد ﷺ يرتفع لأعلى، فإذ بهما يقفان أسفل غار قد فتح فاه، وكأنه يود أن ينطق يدعوهما للاستخفاء.

كان الغار يقع أسفل صخرة ضخمة، مرتفعا بما يزيد على طول قامة الرجل بقليل، وحين هم رسول الله ﷺ أن يدخل متقدما، مس الصديق يد الحبيب ﷺ، حتى يبعدها عن المحاولة قائلا:

– لا تلج الغار يا رسول الله، حتى أدخله قبلك.

تسلق الصديق النتوءات وصعد إلى الغار، ودخله، ثم اعتدل واقفا، وراح يجوس ببصره فيما حوله مدققا ومستكشفا المكان.

كان الغار قليل الضوء فهو أقرب إلى الظلمة منه إلى النور، وأقرب للضيق منه للاتساع، فهو بالكاد يتسع لشخصين أو ثلاثة، ولما اطمأن أبو بكر إلى أنه لا يوجد بالغار حيوان أو زاحف، بدأ يمزق من ثوبه قطعا صغيرة، أخذ يدسها فى الفتحات التى تفغر فاها بين الصخور، حتى إذا كان بها ثعبان أو عقرب منعته من الخروج، وحالت بينه وبين إيذاء الحبيب محمد ﷺ؛ فلما انتهى الصديق، فرد ذراعه لرسول الله، يدعوه ليصعد إلى الغار.. فصعد.

٣

ازداد لهيب الشمس..

وما زال المتآمرون على قتل رسول الله ﷺ، يقفون أمام باب داره، وكأنهم أعجاز نخل خاوية، فلما لسعتهم أشعة الشمس أفاق من غشيته من أفاق، ثم راح يوقظ بعضهم بعضا، وهم فى أشد العجب من الحال التى أصبحوا عليها، ومر بهم مار فسألهم مستغربا وقفتهم:

– يا قوم، فيم وقوفكم بباب محمد؟!.

قالوا:

– لننفذ ما اتفقنا عليه.

قال ساخرا:

– و فيمن ستنفذون القتل يا قوم، وقد خرج محمد من دارة فى الليل، وقبل بزوغ الشمس ونثر على رؤوسكم التراب، وأنتم نائمون.

تحسسوا رؤوسهم فإذا بالتراب يعلوها، فراحوا ينفضونه فى ضيق، وإن كانوا فى شك مما قيل، فلعلها ريح قد هبت فطمرتهم بترابها، أما أن يخرج محمد من بينهم وهم يترقبون خروجه، فهذا ما يتعدى قدرة الساحر وإن سحرهم.

ظلوا على وقفتهم لحظات، وقد أخذهم التفكير فى ساردابه، فتاهت منهم السبل، لكن سرعان ما تغلب عليهم الشك وحب الاستطلاع، فتدافعوا إلى جدر بيت رسول الله ﷺ يتسلقونها، وينظرون داخل الدار فى قلق،فإذا بهم يرون محمدا نائما فى فراشه، وقد تدثر ببردته الخضراء، فتصايحوا مستبشرين، وهم يرمون بالحصى من نبأهم بهربه قائلين:

– خسئت، إن محمدا ما يزال متدثرا ببردته الخضراء، نائما بفراشه.

ثم تنادوا متنافرين:

– فلنقتله وهو نائم.

اندفعوا إلى باب الدار يخلعونه متكاتفين، وقد سيطر عليهم هوس الدم، فانهار الباب منفتحا تحت ضغط أجسادهم؛ شهروا سيوفهم، وتسابقوا يرفعون البرد عن وجه النائم، ولما رأوه، تراخت السيوف المشرعة منهزمة، وصرخ أحدهم:

– واللات والعزى، لقد سحرنا محمد وهرب أمام عيوننا، ولقد كذب من قال إننا كنا نائمين، فما غفلت أعيننا لحظة واحدة؛ وإن محمدا لساحر عظيم !!.

انتاب الجمع غم شديد، وشعروا بالعار مما حدث، ثم خرجوا من دار رسول الله ﷺ، وهم من غيظهم يهرولون فى كل اتجاه، وقد انقسموا إلى مجموعات صغيرة، راحت تتخبط ذات اليمين، وذات اليسار، فلعلهم لاحقون بالمهاجر.

ذهب البعض منهم إلى دار أبى بكر، فلم يجدوا محمدا، ولم يجدوا الصديق، ونفثوا عن غضبهم بأن لطم أبو جهل أسماء ابنة أبى بكر على وجهها فأدماه، لما رفضت أن تدلهم على مكان أبيها، وقالت لهم إنها لا تعرف وجهته، وكانت صادقة فيما قالت، فلم ينبئها فى أى طريق سوف يسير، ولا أى درب سوف يسلك؛ بينما ذهب البعض الآخر إلى غار حراء فلم يحصلوا إلا على ما حصل عليه الآخرون؛ ثم اجتمعت خطاهم متجهة إلى مخرج القوافل من مكة إلى طيبة، فكان لهم الفشل بالمرصاد.

٤

على رغم سير قطيع الأغنام، التى تبع بها عامر بن فهيرة خطى مولاه أبى بكر، لتمسح آثار أقدامه وهو متجه إلى غار ثور، حتى لا يستدل المتآمرون على مكان اختفائه، فلم تترك الأغنام أثرا إلا طمسته، وعلى رغم تخير رسول الله ﷺ لأن يسلك طريقا معاكسا للطريق المؤدى إلى طيبة، كما أنه لم يتجه إلى جبل حراء حيث عهدوا توجهه إليه متحنثا؛ على رغم هذا جميعه؛ فإن حنكة القرشى فى تقصى الأثر، وفطرته الفذة التى تجعله يحسن التوقع، قد انتهت بالمطاردين لأن يتجهوا إلى جبل ثور، بل ها هم أولاء يتقافزون حوله، وفوق صخوره، حتى وصلوا إلى الغار، وأصبحت خطواتهم تسمع بوضوح وهى تدب فوق سطحه، ومن حوله، وكان الصديق يرتعد فرقا وهو يكاد يتمزق من الخوف على الحبيب محمد ﷺ، همس فى قلق:

– يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت رجليه لرآنا.

قال رسول الله ﷺ فى هدوء:

– ما بالك باثنين الله ثالثهما.

ولقد نظر المشركون فلم يبصروهما، فلقد أراهم الله ما يؤكد استحالة أن يكون هناك مخلوق قد دخل الغار منذ سنوات طوال، بعد أن نسج العنكبوت بأمر ربه ساترا من الخيوط على المدخل وعشش به، وأمرت حمامتان بريتان، فوقفتا فى سلام فوق حجر صغير فى مقدمة الغار، فلما قال قائل منهم:

– لندخل الغار، ولنبحث بداخله عن محمد وصاحبه.

سخر الجميع منه، قائلين فى استنكار:

– إن نسيج العنكبوت أقدم من مولد محمد!!.

وقال بعضهم:

– ما بالك بالحمامتين تقفان فى اطمئنان، ولو وفد عليهما وافد لارتاعتا ولفارقتا مكانهما!!.

وانحدر المشركون منفضين من حول الغار إلى أسفل الجبل يصفقون فى عجب.

قال أبو بكر رضى الله عنه:

– ترى ماذا كنا فاعلين لو دخلوا الغار يا نبى الله؟!.

أجابه النبى ﷺ فى ثقة بالله:

– لو جاءونا من هاهنا، لخرجنا من هاهنا.

ونظر أبو بكر فرأى الغار قد شقت، وإذا البحر قد اتصل بالجبل، وسفينة مشدودة بجانب الغار، فبكى أبو بكر من ضعفه وقلقه قائلا:

– والله لا أخاف على نفسى، ولكن خوفى عليك أنت يا رسول الله، فلو مات أبو بكر، فقد مات واحد من المسلمين، أما لو مت أنت، لضاعت شهادة: لا إله إلا الله.

فقال له رسول الله ﷺ يطمئنه:

– لا تحزن إن الله معنا.

ثم رفع يديه إلى السماء متضرعا وقال:

– اللهم اجعل أبا بكر معى فى درجتى من الجنة.

وجاءه جبريل عليه السلام، يخبره: أن الله قد استجاب لدعائه، فالتفت الحبيب ﷺ إلى أبى بكر مستبشرا، وأبلغه بما نبئ به، فهلل أبو بكر وكبر، وسجد شاكرا لله ما أنعم به عليه.

٥

انصرف المشركون من حول الجبل منتشرين فى كل الدروب التى تصل إلى طيبة، يلهثون فى سعيهم، ويلحون فى سؤال كل من يقابلهم:

– هل من راء لمحمد؟!!.

وكان الجواب دائما بالنفى، فعادوا إلى مكة يجرون أرجلهم جرا، والخزى والهزيمة يعششان على رؤوسهم، كما عشش فوقها التراب من قبل، وأعلنوا عن جائزة مائة بعير، تكون لمن يأتى بمحمد حيا أو ميتا، فتسابق الفتيان ما بقى من النهار يبحثون فى الشعاب والدروب بلا جدوى، فلما غلبهم الليل، انكفئوا عائدين إلى مضاربهم!.

وحين ظهر بصيص من ضوء يوم جديد، عادوا إلى البحث مرة أخرى.

ومرت أيام ثلاثة.

والبحث والمطاردة للمهاجر لا ينقطعان.

ثم سكنت حركة الطلب، بعد أن يئس المتآمرون من أنهم سيلحقون به.

فى مساء الليلة الثالثة: تسلل عبد الله بن أريقط دليل الرحلة، فى غفلة من قريش، وقد صحب معه عامر بن فهيرة مولى أبى بكر، قاصدين جبل ثور ومعهما الراحلتان.

نزل رسول الله ﷺ من فوق جبل ثور، يتبعه الصديق تارة، وتارة يتقدمه، مستطلعا الطريق، جاعلا من جسده درعا للحبيب.

وحين وصلا إلى سفح الجبل وجدا عامرا، وابن أريقط فى إنتظارهما، فركب رسول الله ﷺ ناقته، وركب أبو بكر الناقة الثانية، وأردف عامر خلفه..

وبدأت الرحلة إلى الصحاب من المهاجرين والأنصار بطيبة، وتخير الدليل طريق الساحل، ليبتعد قدر المستطاع عن الطرق التى اعتادت أن تسلكها قوافل الحجيج والتجارة.

ولكن هل لهم أن يأمنوا جانب المغامرين، والباحثين عن المجد والسمعة. أو الفوز بالنوق المائة، يقول سراقة بن مالك: إنه لما خرج محمد من مكة مهاجرا إلى طيبة، جعلت قريش لمن يرده عليهم مائة ناقة؛ فبينما أنا جالس فى نادى قومى، إذ جاء رجل منا فقال:

– والله لقد رأيت ركبا لثلاثة مروا على آنفا، وإنى لأظنه محمدا.

فأومأت إليه بعينى، أن أسكت، وقلت:

– إنما هم بنو فلان يبتغون ضالة لهم.

قال:

– لعلهم كذلك.

وسكت، ولما انصرف القوم تبعتهم متخفيا لأرى ماذا سيفعلون.

وحين اطمأن سراقة إلى أن القوم قد انطلت عليهم حيلته، وإلى أنه قد صرف ذهنهم عن الحقيقة التى أدركها، فلقد تفرقوا كل لشأنه؛ أسرع عائدا إلى داره، ودعا جاريته وأمرها بأن تعد له فرسه الشهباء، وتضع فى ركابها زادا يكفيه عدة أيام، ثم استل رمحه، وتمنطق سيفه، وانطلق بفرسه مسرعا ليلحق بالمهاجر، وهو واثق كل الثقة من أنه لاحق بالمهاجر.

وصدق حدس سراقة، وكان له ما توقع، فبعد مسيرة يومين وليلة، رأى عن بعد ليس بالبعيد الناقتين يتقدمهما الدليل، فاستحث فرسه فأسرعت فى عدوها، حتى كادت أن تمسك بمؤخرة الركب، وهنا صرخ فى نشوة المنتصر ملوحا برمحه، مسددا نصله ناحية رسول الله، وقال:

– ما يمنعك منى اليوم يا محمد؟.

قال الحبيب ﷺ فى ثقة:

– يمنعنى الجبار الواحد القهار.

وطار الرمح من يد سراقة، فقد انكفأت الفرس فجأة على وجهها عاجزة عن الحركة، فصاح سراقة وقد ارتمى واقعا على الأرض، مستجيرا برسول الله ﷺ، لكى يطلق إساره وإسار فرسه؛ فلما أجابه رسول الله ﷺ إلى رجائه، ودعا الله أن يطلقه: فأطلق، حدثت سراقة نفسه الأمارة بالسوء، بأن يكر عليهم مرة ثانية، فما إن نخس بكعبيه الفرس لتبدأ ركضها، حتى بدأت ساقاها الأماميتان تغوصان فى الصخور، ويتصاعد لغوصهما دوامة هائلة من الدخان، حملت معها ذرات من الرمال غطت ساقيه، وبطن فرسه، فما استطاع كرا، ولا استطاع فرا.

وأدرك سراقة أنه هالك لا محالة، وأنه فى مواجهة رجل قد حفظه الله، فامتلأ رعبا وصاح مستجيرا:

– الأمان يا محمد.

قال رسول الله ﷺ لأبى بكر:

– قل له، وما تبتغى منا؟.

ونفذ أبو بكر ما طلبه الحبيب، وسأل سراقة فأجابه قائلا:

– تكتب لى كتابا يا محمد يكون آية بينى وبينك، على ألا أعود إلى المطاردة، وأن أكتم سرك إذا ما عدت إلى مكة.

قال رسول الله ﷺ لأبى بكر:

- اكتب له.

فكتب أبو بكر كتابا فى رقعة، ثم رمى به إلى سراقة فتناوله من على الأرض، واستوت الفرس واقفة، وطلب سراقة من رسول الله ﷺ، أن يقبل ما يحمله من زاد هدية تساعدهم فى سفرهم الطويل، أو أن يأخذ قوسه وسهامه علامة لغلمان يرعون له قطعانا من الأغنام، فإذا ما عثروا بهم. قدموا إليهم السهام، فيعطيهم الغلمان ما يريدون من لبن أو خراف.

قال رسول الله ﷺ لأبى بكر:

- قل له لا حاجة بنا فيما يعرض.

واستأنف ركب المهاجر سعيه إلى طيبة.

وعاد سراقة إلى مكة.

ووفى بما عاهد عليه.

فكتم ما حدث حتى عن جاريته.

٦

وتمر أيام..

وتتبعها أيام..

وركب رسول الله ﷺ يرتحل كلما غربت الشمس، ويتوقف حينما يشتد لهيبها، ليلجأ مع رفقته إلى الظل.

وسط قيظ الصحراء، وطول الرحلة، نفد منهم الماء، فأناخ الركب إلى جانب دار فى الخلاء يستريحون، فإذا بالدار أعرابية تدعى «أم معبد»، فلما سألوها أن تبيعهم طعاما يطعمونه، أو لبنا يشربونه، قالت آسفة:

- لو كنا نملك شيئا من هذا لما أحوجناكم للسؤال، ولكننا لا نملك إلا هاتين الغنمتين الهزيلتين، وهما كما تريان لا لبن بهما، فاذهبوا إلى دار سيد القبيلة، فهو أقدر على أن يضيفكم.

ولكن رسول الله ﷺ استأذن «أم معبد» فى أن تسمح له بحلب إحدى نعجتيها، فأذنت منه إحداهما، وهى تعجب من طلبه غاية العجب، حتى صارت تخاطب نفسها، أكثر مما تخاطب رسول الله ﷺ، قائلة:

- والله لو بهما جهد لا لبن، للحقتا بصويحباتهما إلى المرعى، وما بقيتا تشقيانى بغثائهما.

مسح رسول الله ﷺ على ضرع النعجة، وسمى باسم الله تعالى، وتوسل بقدرة القادر، ثم طلب إناء، فجاءته الأعرابية بإناء من فخار، وهى متكاسلة غير راغبة، فلا أمل أو رجاء من وراء سعى الرجل الطيب، وكل ما سوف يحلبه من نعجتها: خيبة الرجاء!.

تناول رسول الله ﷺ الإناء، وبدأ يحلب النعجة، وهى مستسلمة تغثو فى حنو وخفوت، فإذا باللبن يتدفق بأمر الله تعالى فى الإناء: فلما امتلأ، ناوله لأبى بكر فكبر وسمى باسم الله ثم شرب، ثم أعاده إلى رسول الله، فدعا رفاقه لأن يقبلوا، فشربوا جميعا حتى ارتووا، وارتوت معهم الأعرابية، وكان رسول الله ﷺ آخرهم مشربا.

ثم ترك الإناء للأعرابية ممتلئا حتى حافتيه، فتناولته وهى ذاهلة مما يحدث، عاجبة من أمر هذا الوافد بالخير، الذى يتميز عن صحبه، بحب العزلة، وبالنظر طويلا إلى السماء، وكثرة مخاطبتها، وكثرة الحمد، ورفع اليدين بالدعاء، مع الإكثار من السجود. ولا تملك «أم معبد» لنبى الله إلا الشكر. ومع ميل الشمس للغروب.

صلى رسول الله ﷺ بأبى بكر وعامر، صلاة المغرب والعشاء جمعا، ثم تجهزوا لمغادرة الواحة، مودعين «أم معبد» بالدعاء.

انطلق الركب معاودا مسيره الحذر إلى طيبة، فى خطوط متعرجة، ودروب غير مأهولة، رأى دليلهم أنها الأكثر أمنا وبعدا عن قوافل قريش، وكان رسول الله ﷺ يستر وجهه حتى لا يعرف، وكانوا كلما عثروا بقافلة من قوافل التجارة، وهم يعبرون طريقا مأهولا، اتجه أهل القافلة إليهم، يسألون عن آخر أخبار مكة، ثم انثنوا إلى أبى بكر، الذى يعرفهم ويعرفونه، وسألوه عن رفيقه، قائلين:

– من هذا الذى معك يا ابن أبى قحافة؟!.

فيصدقهم الصديق رضى الله عنه قولا حين يجيبهم:

– إنه هاد يهدينى إلى الطريق.

وهو ما كذب فيما قال.

فلقد كان محمد ﷺ هاديا لأبى بكر، يهديه إلى طريق الله.

❑❑❑